الصورة الفكاهية
في أدب البشري

بقلم
الدكتور طاهر عبد اللطيف عوض
مدرس الأدب والنقد

أولا : البشرى فى سطور :

ولد عبد العزيز البشري عام ١٨٨٦ م فى أسرة متدينة يحفها الاجلال والوقار من كل جانب ، وتقضى عليها تقاليد المجتمع العامة وتقاليدها الخاصة بأن تؤثر ذلك النمط الجاد العابس من الحياة ، فقد كان والده شيخاً للازهر وكان مشهوراً بين الناس بالزهد والصلاح والورع والتقوى .

وفى كنف لهذه الأسرة المتدينة نشأ عبد العزيز البشري ، وفى الازهر تلك البيئة المتدينة المحافظة تعلم وتخرج ، ثم عين فى القضاء الشرعى وهى أيضاً بيئة تفرض على صاحبها المحافظة والوقار . . . ويحدثنا البشرى عن فترة طفولته فيقول : (وإن كنت أدركت بعضها وأنا لم أزل فى الثالثة أو الرابعة من العمر حينما كان الخادم يخرج بى الى السوق فيبعثنى المشى على قدمى بضع خطى ويحملنى على أكتافه مئات الأمتار ، وأدركت بعضها وأنا غلام أكاد أدمدم الارض على من فيها من لعب ومن وثت ومن (شقاوه) ومن تكسير للابنة وتمزيق الثياب وارتعاد بالحصى أحصب بها الرائحين والغادين ، من خلق الله القافلين) (١) .

---

(١) مجلة المصور عدد ٥٣٦ يناير سنة ١٩٣٥ ص ٧ .

ثانيا : نفسية البشرى :

يبرز لنا أن أعمال الاديب ماهى الا اسقاط لما بداخل نفسيته وتعبير عن فرحه أو حزنه ؛ ويشير الدكتور طه حسين الى طبيعة نفس البشرى المرحة التى قطرت على الدعابة والنكتة النافذة إلى أعماق القلب منذ حداثة سنه فى تلك التى خاضها معه . (وانى لارانى مع عبد العزيز فى تلك الغرفة التى كان صديقنا على عبد الرازق قد استأجرها فى ربع من ربوع خان الخليلى وكنا نلتقى فيها حين نتفرق من دروس الفقه ، وحين يرتفع الضحى ، لنقرأ بعض كتب الاصول أو بعض كتب البلاغة ، وكان عبد العزيز يلهينا بدعابته وفكاهته عن جد البلاغة والاصول ، ثم لم يلبث أن ضاق بهذا الجد فانسل منه) (١) .

ومن طبيعة النفس المرحة أنها لاتحب أن تبقى فى مكان وقتا طويلا فهى كالطائر الذى يغرد فى كل مكان فيصبح على غصن يغرد عليه ، وفى الضحى على أمتان أخرى يطرب ويسعد من حوله ، فهو دائم التنقل من حدائق الى أنهار ليل نهار ، . . وأوضح مايميز الاحساس الفكاهى أنه استعداد مزاجى عام يصبغ تفكير صاحبه ويوجهه الى كل ما من شأنه أن يثير الضحك فمثل هذا الرجل ينظر الى الحياة من وجهها المرح الفرح وهو لذلك يمسخ الحقائق وينقل المواقف ويستحدث المفارقات التى تستدر الضحك . (٢)

وهكذا عاش البشرى يؤثر التنقل بين شتى الاوساط والطبقات ؛ وقد أكسبه هذا اللون من الحياة خبرة والسعى بالمجتمع المصرى فى كل خصائصه ونقائضه ، كما أفاد احاطة شاملة بما يؤثر أبناء كل طبقة من طبقات هذا المجتمع . . . وابن البلد قد يكون أديباً أو فناناً — إذا كان قد جاور فى الازهر فى صدر شبابه ، وأدبه البيت أو البيتان من الشعر يضمنهما نكتة لفظية أو معنوية ، يداعب بها حديثاً . (٣)

---

(١) فلاسفة وصعاليك ص ٧٠ (٢) سيكلوجية الضحك ص ٣١٦، ٣١٧

(٣) صندوق الدنيا ص ٣٠٨

ومن ثم كان البشرى من أروع الكتاب وأميزهم إذا تحدث عن تطورات المجتمع القاهرى . وما طرأ على حياة أبنائه من شتى الطوائف والطبقات ، وما جد فى حياة الناس بين الأمس واليوم من تقاليد واصطلاحات ، ولهذا تعتبر كتاباته فى هذه الناحية أصدق مرآة وأصفاها للحياة المصرية فى عهد الانتقال ، وصورة فذة لا نظير لها فى الأدب المعاصر .

وللبشري فلسفة من نوع خاص، فلسفة الأخذ من الحياة بأكبر قسط وافر من السعادة والبهجة والمرح ، فهى فلسفة الابتسام والبهجة بالحياة ؛ وتذوقها جمال فى كل شىء وحسن فى كل منظر ؛ وآمال عذاب فى كل قلب ؛ ويعبر البشري عن تلك الفلسفة بقوله . . لا والله لا أحرم نفسى لذة فى الحياة ان طالت أو قصرت سواء ؛ وما قيمة هذه الحياة بعد أن فقدت الاخوان ؛ والأصحاب الذين كانت تقربهم النفس ويطيب الحس . (١)

يصف البشري حبه للحياة كاشفاً عن شخصيته المرحة بفطرتها ؛ وما كان بينه وبين شاعر النيل فيقول . . . ولقد عشنا لا نغبط أحداً على عيشه ؛ ولا نتغص على أحد ما حباه الله من جاه ، ومال ، إذ نحن مرتاحان بما رزقنا كلانا من محبة ووفاء ، أتندر عليه ما شاء الله أن أتندر ، فلا أرى منه برما ولا تعاظما لهذا الذي اصطنعته ، ويتطرف بى ما شاءت له صفوة اللسان أن يتطرف ، فلا والله ما أحسست أن نعمه فى الدنيا تقوم بأزاء هذا الذى أنا فيه ، ولقد عشنا ندل بهذا على الناس حتى ما يعجبنا عجب ، ولا يستهوينا من أسباب الحياة أرب . . (٢)

كان الشيخ عبد العزيز البشرى كل ما فى الدنيا لا يساوى عنده جلسة مع صديق أو خلوة فى ليلة سمر ينطلق فيها مع طبعه وسجيته ، فيضحك ويطرب ويشقق الحديث فى مجرى الفكاهة والتندر على كل ما يحيط به ويقع تحت بصره

---

(١) فلاسفة وصعاليك — ص ٧٤ (٢) المرجع السابق ص ٦٨

ويتروى من أحاديث الماضى والحاضر كل معجب ومطرب ، فلا ينصرف حتى يشبع نفسه ويشبع من حوله طربا وعجبا وإذا بنوادره واسمارة وأحاديثه تتناقلها الألسن من مجلس إلى مجلس ، ويتناولها المتحدثون فى كل مكان ومجال، وهو يفيض على المجتمع المصرى بهذا كله مادة أدبية خصبة شهية ، يجد الناس فى تناقلها وفى ترويدها ما يشفى القلوب ويمتع النفوس ويعينها على متاعب الحياة ويثرى المكتبة الأدبية ببدائع قلمه ؛ وخصب فكره ، ووحى ضميره .

تلك هية نفسية الأدب الصافية الرقراقة ؛ لا تعرف الحقد والصراع بل نفس تعشق الحب والصفاء وتنشد الجمال والمتعة فى كل ما ترى وتسمع ؛ ومن ثم كان البشرى ذا مكانة مرموقة بين أدباء عصره ، يجله الجميع ؛ ويعرفون له حقه ؛ وكل مجلس يخلو منه فهـــو كئيب ، يبحون عنه ، فهو زينة المجالس وفاكهتها ؛ لمـــا حباه الله من حلاوة اللسان ؛ وخصب الخيـال والعفة فى القول والفعل ، وقد عاش البشري قريباً من قلوب أصدقائه حبيباً إلى نفوسهم إذ كان لطيف المعاشرة صافى النفس طاهر الدخيلة رقيق الحس ، حريصا على ود أخواته وعارفيه . . . وبعد حياة حافلة فى جميـــع فنون الأدب أثرى بفنه الرائع المكتبة الأدبيـــة ؛ ورجعت هـــذه النفس إلى بارئـــها راضية مرضية عام ١٩٤٣ م .

ثالثاً : البشرى ناقد اجتماعى :

لقد تناول البشرى بقلمه الأدبى الكثير من عادات المجتمـــع وتقاليده الفاسدة فى أسلوب نقدى ساخر ليخرجها أمام المجتمع ناصعة البياض كالشهد أو أشد حلاوة منه ، وذلك بما منحه الله من بديهة حاضرة وسرعة خاطر ونقاء بصر وبصيرة ، فقد كان يجول ويصول ويصعد الوهاد والنجـــاد ، بريشته الساحرة المعبرة كأنها عدسة مصـــور يلتقط بهـــا كل ما هو نادر فريد ؛ فلم يترك البشري أمرا من أمور دنيانا الا ووضعه تحت بصره وأخرجـــه فى قالب أدبى شيق تفخر به المكتبة الأدبية وتزهو به الملـــكات الانسانية

ويعد الشيخ عبد العزيز البشري من أشد النقاد للعادات والتقاليد الموروثة في المجتمع المصري ، وقد وضح في كتاباته كثيراً من عيوبه ومثالبه ، وانتقد العادات المرزولة التي لا تزال تسيطر عليه وتشيع فيه ، وتهكم بالتقاليد البالية التي لا تبرح تقيد المجتمع وتحول دون تقدمه وتطوره ، فقد انتقد البشري كثيراً من الآفات الاجتماعية التي تصادفنا في حياتنا ومن ذلك . .

ينتقد البشري في أسلوب يموج بالسخرية والتهكم ، تلك العادة السيئة التي شاعت في المجتمع المصري «الميسر» على الخيل حيث يجتمع هؤلاء الذين قرنوا أرزاقهم بتلك الجياد ، ومن ثم حرك البشري ريشته الفنية الرائعة فيخرج صورة نقدية لاذعة من تلك العادة السيئة ، يقول . . . هؤلاء جميعاقد أغرموا غراما شديداً بالمخاطر في سباق الخيل ، وكلهم يمني النفس من وراء ذلك بالغنى والثراء من غير سعي ولا كدر ولا عناء فمنهم من يحتصر الدراهم للمراهنة من القوت ، ومنهم من يبيع فيها بعض المتاع ، ومنهم لم يصبها إلا فيما تطول يده من أموال سادته ولو من تحف الدار إذا لم يتيسر من ثمن اللحم والخضار فاذن كان آخر النهار وانكشف الغبار السابقة في المضمار ، كان حظ تسعة وتسعين في المائة من لاعبي هذا القمار خساراً في خسارة ودماراً على دمار (١)

وينتقد التكالب على « الوظيفة » ، وعدم إيثار العمل الحر الذي يخلق الآفاق الواسعة الحافلة بالعمل ، الوافرة بالانتاج ، يقول . . . وفن الوظيفة هذا شرح الله صدرك ، وأطال عمرك ورفع في المناصب قدرك ، فن واسع الأطراف ، مقعد القواعد ، مبسط الأمثلة والشواهد ، لا يحذقه الفتى الا بعد الجهد وشدة المطاولة ؛ وسهر الليالي في التفكير والتدبير ، وتمرين الأعضاء في

---

(١) مجلة المصور عدد ٤٤٥ يناير سنة ١٩٣٥ – ص ١١

كيفية القعود والقيام ، والسكوت والكلام ، والدخول والخروج ، والهبوط والعروج ، والتشييع ، والإستقبال ، والخنوع والإستبسال ، والأنقباض والتبسيط ، والرخاء والسخط ، وإرهاف الأنف حتى يشم الريح على أميال ويدرك مدى تحول الجو من حال إلى حال (١).

ويصف مهنه أصبحت الآن في عالم النسيان إلا في بعض الأوساط الشعبية والريفية ، « الخاطبة » ، وما كان تتبع من عادات وتقاليد جري عليها العرف ، عند قدوم أهل العريس لزيارة منزل العروس ، وما يحدث من مظاهر الإحتفال ، فيصور ذلك بأسلوب فكاهي موضحاً تلك العادات والتقاليد في لوحة فكاهية موضحا تلك العادات والتقاليد في لوحة فكاهية ناقدة ساخرة ، يقول . . . وسرعان ما تزكر الأم الخاطبات محترفات أو صديقات ، في التماس العروسة الحلوة في بيوت الأكفاء ، حتى إذا عدنا إليها بالخبر فأرسلت أم العروس من تعين معها موعداً لرؤية فتاتها ، وفي هذا الموعد تمضي الأم وبنتها المتزوجة وأختها ، وقد تصطحب بعض جاراتها من الصاحبات والواليات ولا تسقط من عدة الوافدات الخاطبة المحترفة (٢) . .

وفي أسلوب نقدي ساخر يكشف عن حيل النساء في الكشف عن محاسن العروس ، يقول . . إذا أفرغنا من هذا دعونا إلى الجلوس فجلست على طرف كرسي في طرف الغرفة ، ثم رصد بسعدرجتها إلى الحديث لعل في لسانها حبسة أو عقدة أو رثة ، أو لعل في بعض لفظها لثغة ، فاذا إطمأننا على سلامة اللسان وفصاحة الأسنان ظللن برهة يصيرة يمتدحن فيها جمال الفتاة وحسنها ، ثم إستأذن في الإنصراف وتبالغ في تدليلها وإعزازها ، وإظهار الحب لها والكلف بها ، وراحت توالينها تحت هذا العنوان ، تقبيلها وضما ، والتزاماً وشماً ، طائفة باليد على مجاوارح الجسد ولعل منها ماعراه الزهل أو إصابه الأود (٣) . . .

وتثور ثورة البشري عندما عم الفساد وأصبحت السيدات والفتيات تكشفن عن صدورهن وتخلعن عباءة الشرف والعفة سعياً وراء « الموضة » فينقد تلك

---

(١) المختار حـ ٢ ص ٢٥٠ (٢ - ٣) قطوف حـ ٢ ص ٥١ ، ٥٣

العادات التي تحطم صرح الوقار وتبعث المجتمع للانهيار، فيقول ... وقد كشفوا عند النحور، وحسروا عن أعلى الصدور، فجلوا عما هو أنصع من صفحة البدور أو أحلك من وجه الديجور، وقد مشوا في شدة الحزم على الخصور ضيقة، وإشتد « تحزيقه » حتى قام مقام الجلد من ساقي الفتى ومافوق ساقيه، فلو أراد خلعه سلخوه بالسكينة سلخاً، وهو يثنى ويتمايل، حتى يكاد من أعطافه يسيل ويتزايل (١) ...

ويفتقد البشري عدم الرحمة بين أفراد الإنسانية وإنتشار الأنانية والأخذ بمبدأ الذاتية، مما يسلم المجتمع في النهاية للفساد، فهذا الطفل الشريد الذي لايجد من يعولة ويشد من أزره ويحميه من نائبات الزمان، فهو دائما أبداً رفيق الطريق، في ثيابه الممزقة وجسد بالي، كأنه فارق الحياة فأصبح كطيف خيال لايثبت على حال ولايقوم له على الإرض قرار كأنما هو كرة تتقاذفها الأقدام والأقدار سواد الليل وبياض النهار، فيسكب البشري في ضمير الأمة تلك الكلمات المدوية من أجل الإهتمام والعناية بهؤلاء البؤساء ... هاهو ذا يسعى سعالا رفيقاً تسمعه، لينا موقعه؛ لو أرهفت له الآذان لخرج لك منه نغم حزين يخز الحشا، ويخد الكبد خداً. الله أكبر. لقد أقبل وشيكا مقوض الرئات، وسفير الممات، فيا معشر القادرين الأقوياء، إرحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء (٢) ...

وقد صور البشري حرمان الفلاح المصري، وبؤسه وتعاسته ووصف الحالة المريرة التي يقاسيها والتجارب القاسية التي يعاني منها، ناقداً هؤلاء المتفكرين لحقوقه، داعياً لرعايته والعناية به، قال. أما الحديث عن الفلاح المصري في هذه الأيام فما يروع ويهول، فقر لايعوله فقر، وبؤس لايلحقه بؤس، مال غائب ومطالب لاتبرح حاضرة، ومن أين للمسكين بالمال يواتي به بعض الحاجة، أما أولاد الفلاحين فمخوص باليه تغدو وتروح في أسمال باليه، تكشف

---

(١) مجلة العصور عدد ٥٤٤ مارس ١٩٣٥ ص ١١ (٢) المختار ج ١ ص ١٥٤

عن الأبدان أكثر مما تستر وتبدى من اللحوم استغفر الله بل من العظام والجلود وأعظم مما تحجب ولا حول ولا قوة إلا بالله العظيم (١) ...

رابعاً : جوانب من صوره الفكاهية

كان البشري من أرق أدباء العصر الحديث أسلوباً، وأحلاهم دعابة وأعذبهم حديثاً ، فضلها عن كونه إمتاز بروح المجالس الظريف ، والمنادم اللطيف ، فرويت عنه الكثير من الدعابات الطريفة ، والنكات الظريفة التي جرت على الألسنة وتناقلتها الشفاه ، فقد إمتاز بذكاء حاد لماح ، وسرعة خاطر ، وقدرة على دقة التصوير والتعبير بالقلم واللسان، والعلم بأحوال البيئة والزمان، والأشخاص فكان يشيع في المجالس روح الداعبة والمرح ، كما يتحف الحاضرين ببعض النوادر الطريفة سواء التي يستقيها من كنوز الكتب العربية القديمة ، أو التي تحدث بين إخوانه ومن عشاق فنه الجميل .

والشيخ البشري مصور بارع بآلة الشعر والنثر ، والمحلل المعلل الساخر القاضي الضاحك ، فقد أمتلك ناصية التصوير والتحرير ، بخفة ظله ولطف حسه ، ودقة شعوره ، دون أن يشعرك بأن ما يكتب هو قصده أو غايته ، من فرط ما به من انطلاق سجية ووضوح بيان ، ولقد كانت طريقة البشري في تصويره الفكاهي لشخصياته ، هي أن يلتقط بموهبته التصويرية الفذة أبرز الصفات في الشخصية التي يريد أن يصورها ثم يلح على هذه الصفات الحاحا شديداً ، ولا يزال يضيف إلى لوحته اللمسة ، والتشبيه المقارب أو البعيد والمعنى الخفي أو الواضح ، ومحصلة ذلك كله ، هي تلك اللوحة البديعة التي ترسمها لنا ريشة البشري .

وأول ما نعرضه من صوره الفكاهية ، صورة لنفسه حيث باغت به روح الدعابة والمرح ، بأن يسخر من نفسه ويصف مظهره بأنه ليس به شيء من

---

(١) عبد العزيز البشري ص ١٢٣

الجمال ؛ بل ما تظهره له المجلات من صور ، ما هو إلى تزييف للحقيقة وايهام القراء بأن له حظ من الجمال ، ويقول . . . وقد دعوت لى ياسيدى فى ختام خطابك بدوام نعمة الجمال ، وليت شعري أى جمال هذا الذى تدعولى، مخلصاً بدوامه ، لعله الجمال الذى تواطأت أنت ومصور المجلة على تجلبتى للقراء فيه كل يوم . (١)

ومن الشخصيات التى قام البشرى بتصـــويرها وتحليلهـا شخصية ، « زيور باشا » ، فيرسم هذا الجسم البدين كأنه البحر الذى تباعد شاطئيه وزاد عمقه وثقلت جوانبه حتى أصبح من العسير جمعه وضمه وبيـان حاله ، يقول البشرى فى تصوير جسم زيور باشا . . . أنه مؤلف من عدة مخلوقات لا تدري كيف أتصلت ولا كيف تعلق بعضها ببعض ، وانك لترى بينهـــا الثابت وبينها المختلج ، ومنها ما يدور حول نفسه ، ومنها ما يدور حول غيره ومنها المتيبس المتحجر ، ومنها المسترخى المترهل . (٢)

ومن أبرع الصور التى رسمها بريشته القلمية لشاعر النيل حافظ ابراهيم يصف فيهاشخصيته وصوته، فى صورة فكهة مرحة، يقول ... انه جهم الصوت جهم الخلق ، جهم الجسم ، كأنه قد من صخرة فى فلاة موحشة ، ثم فكر فى آخر ساعة أن يكون انسانا فكان والسلام ، وأما ما يدعى فمه فكأنما شق بعد الخلق شقاً ، وأما عيناه فكأنما دقتا بمسمارين دقا ، وأما لون بشرته والعياذ بالله؛ فكأنما عهد به إلى نقاش مبتدىء تشابهت عليه الاصباغ والألوان فذاب أصفرها فى أخضرها فى أبيضها فى بنفسجها ، فيخرج مزجا من هـذا كله ، لا يرتبط من واحد سبب ، ولا يتصل بنسب . (٣)

ويصف حوادث السيارات فى صورة فكاهية ساخرة فيقول . . . ولا تنسى جعل الله لك فى كل خطوة ألف سلامة ، تلك السيارات العاصفة ما لها من دون

---

(١) مجلة المصور عدد ٥٣٤ يناير سنة ١٩٣٥ م ص ٨

(٢) فى المرآة ص ٤ (٣) رحلة مع الظرفاء ص ١٢٧

دون الله كاشفه ، وتيك الذى يتخذها أبناء الذوات ومن أتحدرت اليهما النعمة ، وهى تنطلق انطلاق السهام فى أجواء الأنام، كأن مهمتها فى هذا البلد صنع أرامل وتحريج ايتام . . . (١)

وقد سخر البشرى من المرآة وتبهرجها ، وصور حالتها فى القديم والحديث فى صورة فكاهية ، تنبع جمالا ، وقدرة على تجسيم الحقيقة المرئية ، كأننا نراها بأعيننا ونلمسها بأجسامنا ، . . لم يكن التجميل بالمساحيق وما يؤدى مؤداها الا نادرا جدا ؟ وأكثر ما يكون ذلك ؟ فى الاعراس ونحوها ؟ وكان الافراط فيه والمداومة عليه معيبا . وكانت السيدة التى تلزمه موضع حديث السيدات وانكارهن . وكثيرا ما يتخذنها موضعا للاسمار . والان وهذه السرعة السريعة . لقد تجرد نساءنا بين الطبقتين وفتياتها من أرديتهم الخارجية جملة . ونضون الأقنعة فلا قناع البعه وقصرته الثياب . وربما حسرن عن الأذرع حتى لقد يبلغ النظر أعلى الكتف وأسفلها جميعا . وأما صقل العوارض ودهانها بالمساحيق البيضاء أصبح هذا وأمسى من ضرورات السعى فى الطريق بل كاد يصبح وعسى مما تعاب المرأة بتركه وتعير إذا هى تخلت عنه . . . (٢)

والواقع أن الشيخ عبد العزيز البشرى كان يصور الواقع دون توشية وتزين ؟ ولا تحرج فى اعلان رأيه فى جرأة وصراحة ووضوح ومن ثم جاءت صوره الفكاهية شديدة الوخز واللذع من أجل اصلاح المعوج وتقويم المجتمع ودفعه نحو التقدم والازدهار .

على أن البراعة فى التصوير الفكاهى تحتاج فى رأى إلى البديهة الحاضرة والشخصية المرحة الذكية وهذه هى السمات التى تميز بها الشيخ البشرى على رأس تلك النخبة الممتازة التى وهبها الله تعالى لمصر فى فترة من الفترات العامة فى تاريخها الحديث . ونذكر منهم فى هذا المجال . حافظ ابراهيم . ومحجوب

---

(١) فى المرآة ص ٣٧ (٢) قطوف — ج ٢ ص ٢٨، ٢٩

ثابت والمازني ، وحفني محمود وامام العبد ، وحسين شفيق المصري ، وغير هؤلاء من أدباء المقاهي والمنتديات ممن كانوا يثورون على الأوضاع الفاسدة ويسخرون من النظم البالية .

والصورة الفكاهية التي كانت ترسمها ريشته البشري لم تكن تستهدف الاضحاك فحسب ، وإنما تريد في الوقت نفسه أن تقول شيئاً ، تريد أن تسخر من شيء حيوي في حياة الانسان ، اجتماعيا كان أو اقتصادياً أوسياسيا وتمس بذلك وتر احساساً في أكبر مجموعة من الناس ، محدثة في نفوسهم عن طريق السخرية والتنفيس ما يشبه الأثر التطهيري . فلم يكن البشري مجرد ساخر من الناس ولا الحياة فحسب ، وإنما كان ناقدا ومصلحا ، ومتهكما لاذعا يجنب امته ما يراه من الرذل التي تنحدر من مكانتها وتحط من شأنها وتنقص من قدرها .

خامسا : سمات الصورة الفكاهية عند البشري :

كان الشيخ عبد العزيز البشري صاحب أسلوب فريد من نوعه ، تموج فيه الفكاهة الحلوة ، والنادرة المستملحة ، والسخرية اللاذعة التي تهدف إلى الإصلاح ورقي الأمة ، والتهكم المرير من أجل تطهير المجتمع من عيوبه ودفعه إلى الإمام ، ومن ثم كان البشري صاحب أسلوب تميز في رسم الصور الفكاهية بين أدباء عصره .

وإذا كان الغالب على أسلوب البشري المرح والفكاهة والداعبة ، إلا أننا إذا نظرنا بدقة نجد في ثنايا الحسرة والتهكم ، فهو أديب ذو حس مرهف ، يحس ، بآلام أمته وآمالها فنراه يصف حاله ذلك الطفل الشريد بأسلوب ، تذوب في الحسرة والألم ، هامساً في أذان القائمين على الأمر أن يحسنون إلى أمثال ذلك الطفل ، يقول ... هاهو ذا يرتصد الكسرة بين يديك أن كنت آكلا ، ولعقب السجارة تلقيه أن كنت مدخناً ، وقد يأخذ عينه « لقى » من فضالة الطعام خسيس قد يعافه العراب ، وتعف عنه الكلاب ، فإذا هو قد ارتج

إرتجاجاً ، وكان يسير إضطراباً وإختلاجاً ، وجعل بصره يدور فى كل ناحية ، مترقباً سطوة القدر بكل داهية ، ثم إنقض على فريسته إنقضاض العقاب ، وطار بها حتى إختفى فى السحاب (١) ...

فقد صال البشرى وجال فى كل ميادين الحياة وشئونها، وذاق مرها وحلوها ومن ثم إستطاع أن يعبر عن ذلك بأسلوبه الساخر اللاذع فى قالب رشيق جذاب وأسلوب ممتع كاشفاً عن الداء واضعاً له الدواء ، وللشيخ البشرى أسلوب فى رسم الصور الفكاهية جمع فيه بين لغة الجاحظ الذى إفتتن به ، وتأثر بتصويراته البارعة وتحقيقه الذكى ، وبين البليغ من لغة أهل زمانه وعصره ، فقد كان بينهم يتسنم الذروة ، فهو صاحب أسلوب فنى ممتع ، يصور به الأشخاص ويعكس صورهم فى المرآة فيبدى من خصائصهم ونقائصهم المألوفة وغير المألوفة على نحو ما هو معروف فى فن التصوير الهزلى : حتى نراهم أمام أعيننا صورا حية ناطقة . وذلك فى أطار أسلوب فكاهى ساخر بلغ فيه الغاية . وامتلك منه الناصية . وكانت تسعفه فى ذلك براعة فائقة فى الوصف والتصوير . وعبقرية فكاهية تطوع له خلق المفارقة وحبك النادرة .

وقد رسم البشري بهذا الأسلوب الضاحك الساخر صورا لعدد كبير من الشخصيات التى عاصرها وخالطها . ثم جمع بعضا منها فى كتابه « فى المرآة ». وهو كتاب لا يزال فريداً فى بابه . وحيداً فى فنه وأسلوبه . إذ نجد كثيرا من أسلوبه الرشيق ومقالاته البارعة صوراً ضاحكة ساخرة . قد جاءت على الرغم من ايجازها غاية فى البراعة والروعة . يقول البشري فى هذا المقام ولا يذهب عنك ان شأن الكاتب فى هذا الباب كشأن المصور «الكاريكاتيرى» فهو إنما يعمد إلى الموضع الناتئ فى خلال المرء فيزيد فى وصفه ويبالغ فى تصويره بما يتهيأ له من فنون النكات ... (٢)

---

(١) المختار ج ١ ص ١٥٢ ، ١٥٣ (٢) فى المرآة ص و

ولقد أستطاع الشيخ البشرى بأسلوبه الرشيق أن يثير الضحك فى كل انسان سمعه أو قرأ له ، ومن كل جانب من جوانب حياتنا المصرية التى شاهدها تحت بصره ، وقد عمد كثيرا إلى الموازنة بين ما كنا عليه فى أواخر القرن الماضى وما صرنا اليه فى هذا القرن ، من عادات قديمة أو مستحدثة فلا تكاد تقرأ ذلك عنده حتى تضحك إذا كان يعرف بأسلوبه فى المزاح كيف يعرض الحق الصريح ، فاذا هو مشحون بالضحك والفكاهة و السخرية .

وأساليب صورة الفكاهية فى أى معرض ظهرت وتحت أي معنى كانت هادفة ليس فى ذلك شك ويعزي إلى أنه مصرى والمصريون لهم ولع خاص بالفكاهة يتعلقون بها ويميلون إليها بالاضافة إلى المحافل الادبية كانت هى الأخرى عاملا من العوامل التى ساعدت فى تنمية الأساليب للفكاهية فيه ، كما أن إندماجه فى المجتمع الذى يعيش فيه هيأله أن يتخذ المادة من أوضاعه وما يجرى على مسرحه ولهذا تعتبر أساليب البشرى معبرة عن عصره وأيامه .

ويمكن للباحث الاجتماعى أو المؤرخ أن يرسم صورة صادقة عن الحياة النفسية والاجتماعية فى عصر من العصور بدراسة ألوان الفكاهة الشائعة فى ذلك العصر وذلك بتعرف ما يضحك أبناء ذلك العصر أو على الأقل مالا يستثير تقززهم ، أو نفورهم ، وفى رأى أنه ليس أصدق من الضحك مقياسا لدراسة مزاج الجماهير فى بلد من البلاد أو عصر من العصور ، فالجماهير أثناء مرحها تبرز ما خفى من أخلاقها فتبدو على سجيتها متحللة من التقاليد المدسوسة عليها والتعاليم الغريبة عنها ، ومن الأمثله التى توضح هذا الرأى الصور الفكاهية المتعددة التى رسمتها ريشة البشرى . فهذه الضحكات من تلك الصورة الفكاهية أدق من مقياس لدراسة مزاج الجماهير .

ومن أهم ما يميز المصريين فى عصرهم الحديث روح الفكاهة المنبثة فى أحاديثهم . فهم مشغوفون بالنكتة على كل شخص وكل شىء . وفى أحرج المواقف وأدقها لا تلبث بارقه الفكاهة أن تلمع وتتألق وترتسم على الافواه والشفاه . وليست هذه الروح جديدة على المصريين . فهى قديمه فيهم . ترجع

إلى أعتق الأزمنة وأعمقها فى التاريخ . فمنذ برزوا على صفحة الزمن وهم يضحكون ويسخرون ويتهكمون. وقد مضت مصر فى عصورها القديمة والوسطى وفى العصر الحديث أثناء الاحتلال الانجليزي تعانى هذين الضربين المتناقضين فى الحياة ضربى الشدة والرخاء . الشدة وما يطوى فيها من عسف بعض الحاكمين وظلم المحتلين . والرخاء . وما يطوى فيه من طيبات الرزق . وطبيعى أن يجر هذا التناقض وما يحمل من تضاد شديد إلى الفكاهة والسخرية .

وأشير إلى أهم ما يميز أسلوب البشرى فى رسمه للصورة الفكاهية فى النقاط التاليـــة :

أولا : السخرية اللاذعة التى تهدف إلى الإصلاح والتقدم . والسخرية مما يعوق تقدم الأمة ومن العادات والتقاليد المرزولة . ومن الطريف أن الشـــيخ البشرى تنـــبه من نصف قرن إلى بعض المثالب التى تحدث فى المجتمع المصرى . واستطاع بسخريته الفـــكهه أن يسلط عليها أفانين ريشته الساحرة . مشيراً إلى وسائل التخلص منهـــا وإذا كانت سخريات البشري يشوبها شيء من المبالغة . فذلك لا يعـــد عيبـــاً فـــهو كالطبيب الذى يعرف نفسيه مريضـــه ولا بد من أن يخيفـــه ويبالغ فى وصف مرضه حتى ينفذ تعاليمه وتكون النهـــاية هى شفاء المريض وهناءه.

ثانياً : التهكم والازدراء فيما تناوله من مشكال المجتمع . فكان تهكمه هو الرداء الفاتن الذي يجذب إليه الأنظار . والصوت الرخيم الذى جمع إليه الأسماع . والشذى الفواح الذي جذب إليه الأنوف . فقد كان تهكمه على تقاليد المجتمع ومضات من نظراته فى الإصـــلاح ودعوته الجديدة إلى تخليص المجتمع من أصفاد الماضى . وقد كانت ثورته ممزوجة بالسخرية والتهكم ومن هنا ظهرت أهمية رسالته الأدبية فقد وضعها فى إطار جذاب خلاب .

ثالثاً : المرح والدعابة الحلوة . والفكاهة المستملحه ، وقد ساعده على ذلك، ما وهبه الله تعالى من صفاء الذهن ؛ وحدة فى الذكاء وحضـــور البديهة ، وحسن التخلص ، فقد استطاع بأسلوبه المرح أن يرسم صور فكاهية لكل ما يراه فى ميادين الحياة .

رابعاً . استعمال الالفاظ العامية والأمثال الشعبيه المشهورة ، فما لا شـك فيه أن اللفظ العامى الذى يعرفه أهل الخاصة والسوقة من الناس يدل على ذكاء من البشري، فهو فى دائرة الانتشار أكبر ، فاذا أراد أن يكتب فى موضوع ما أضاف إليه بعـــض الالفاظ العامية والأمثال الشعبية التى لها صدى فى نفوس المصريين كالعبير الفواح ومن أمثله ذلك قول البشري يمزح مع المرحوم فكرى أباظة . . . وهكذا صح المثل « أدينى عمر وأطلق عليه ٤٠ مدفع هاون المانى . ودا المهم بعد كل هذا انك نلتها ياسى فكرى ، وصدق المثل العامى للموعودين لا للحسابين » مبـــارك . مبـــارك . عن الحسود فيها عـود . . . (١)

خامساً : الوصف ، فقد أمتاز البشرى رحمة الله بخياله الخصب الذي يشيع فى جميع أركان الحياة الأمل والبهجة كأشـعة الشمس التى تضيء الدنيا بعد طول سواد ليل بهيم ؛ وتشيع الدفء على كل أنام الأرض ففى صورة ذات أطار جميل يصف لنا محاسن الأنثى ، حتى يخرجها لنا كأنها بستان تختلف أزهاره ورياضه ، مما يسعد النفس ويبهج الحس ، يقول . . . تروح تتمثل بياض الخد ، وما طبـع الله عليه من حمره الورد ، وهذا الفم الحلو الرقيق ، كأنه خاتم صيغ من عقيق ، وهـذا أبيض الثنـايا قد نظمت فى كلا الفكين .

---

(١) مجلة المصور ـ عدد ٥٣٥ يناير سنة ١٩٣٥ ص ٧

نظم اللالىء فى سلكين . وهذا النحر وهذا الصدر . اتراها طبعاً من مرآة أم قد من صفحة البدر . وهذه الأزناد البضة . لعلها صيغت من الفضة . وهذا مهوي الأقراط والقلائد . وذلك معقد الخلائل والمعاضد . وهذا وهذا . وهذا من كل ما يطير الخيال ويورث الخبال . ويضل لب الفتى فى بيدائه أيما ضلال . . . (١)

سادساً : التصوير الهزلى . واستعان فى رسمه بالتهويل والمبالغة من جهة وبالمفارقات من جهة أخرى وذلك حتى يستطيع أن يجيد اللوحة التى يرسمها وأن يبدى فيها طبعه ومزاجه ونفسه فى تلوين ساخر لا يتقنه إلا مصور ماهر يعرف كيف يصور فكاهاته وسخرياته إلى مواطن الضعف فى الأشخاص والعادات والتقاليد والمعتقدات فاذا هى تبرزفى صورة فكاهية تموج بالظرف والدعابة الهادفة.

وقد ينزع الكاتب الساخر إلى استخدام الأسلوب« الكاريكاتيرى» فى شعره أو نثره فيمسخ غريمه بالمبالغة فى الوصف كما يمسخه المصور الكاريكاتيرى ومن هنا يتضح أن الحكم على طرافه التصـــوير الفكاهى يعتمد على جملة اعتبارات من بينها تباين المزاج الشعبى والمســتوى الاجتماعى والثقافى وحيوية المشكلة التى يعالجها .

ولم يكن أسلوب الشيخ البشرى . يغضب من يتناولهم من عظماء عهده بل أن منهم من كان ينتظر صدور المجلة التى حفها بهـــذا التصوير الفكاهى بصبر فارغ . فقد كان عف اللسان حسن القصد دون التواء أو تجريح وكنت لا تلقى البشري إلا مشرقا كديباجته . مرحـا فرحا كأسلوبه فاذا ضحك استحال وجهه كله إلى ثغر ضاحك . والذى أعان البشرى على بلوغه ما بلغ سيطرته على اللغة . ووضـــوح فى بيـــانه . وخفة روحه فيما يصف ودقة حس فى المرئى وما وراء المرئى إلى جانب طبيعة مرحة بغير حدود قبل أن يغافله المرض ويندس إليه فى غدر لم يكن يتوقعة .

---

(١) مجلة المصور — عدد ٥٣٦ — يناير سنة ١٩٣٥ ص ٧

ومن ثم كان البشرى. أروع الكتاب وأميزهم أذ تحدث عن تطور المجتمع القاهرى وما طرأ على حياة أبنائه من شتى الطوائف والطبقات وما جد فى حياة الناس بين الأمس واليوم من تقاليد واصطلاحات. ولهذا تعتبر صوره الفكاهيه فى هذه الناحية . أصدق مرآة وأصفاها للحياة المصرية . فى عهد الأنتقال . وصورة فذة لا نظير لها فى أدبنا المعاصر لن نجدها عند كاتب آخر من الكتاب المعاصرين ولذا يعتبر البشرى صاحب مدرسة وحده فقط. فهى مدرسه لا تلاميذ لها. ففنه على سهولته ويسره وقربه من أفئدة الناس . أرفع وأشد من أن يتعلق به المتأثرون والمقلدون . ومن ثم لم يحاول أحد أن يتعلق به أو يحاكيه ويسير على دربه . فهو ليس من الصعب مجاراته كذلك ايس من السهل تقليده . فهو اسهل الممتنع الفريد فى فنه ونوعه .

والذى جعل أدبه يتصدر تلك المكانة الرفيعة . هو عفته ونقاء سريرته وطهارة لسانه وقلمه . فلم يكن شيطان الفتنة يعرف إلى نفسه سبيلا : فهو عف اللسان . أديب ذا حس مرهف يعرف ماله وما عليه تجاه المجتمع الانسانى . فلا يخدش ولا يعيب ولا يحقر رأيا ولا يستتفهه صغيرا . بل رجل ذو شخصية معتدلة .